

البنيّة السوسيو معرفية للوصم

«بحث استكشافي في التّمثّلات الاجتماعية للذّات العارفة»

د. شارف عماد •

د. بدراوي سفيان •

DOI : 10.12816/0058949

الملخص

البنيّة السوسيو معرفية للوصم هي محاولة بحثية استكشافية تهدف إلى تحديد محتوى الوصم وبنائه بوصفها حقيقة اجتماعية تعكس في الممارسة الاجتماعية، وباعتباره مفهوماً نظرياً معرفياً يستخدم في الأبحاث لتبرير هذه الممارسات، وذلك من خلال التقصي وتحليل خطاب الذّات العارفة للوصم كبنيّة سوسيو معرفية، واستخراج أبعاد هذا المفهوم بالاعتماد على تقنية التحليل المبختي لمجموع مشاريع المدخلات التي تشكل المدونة المعرفية المنتقاة موضوع «الوصم قراءة عابرة للتّخصصات» محور الملتقى الذي تم انعقاده بتاريخ 9/8/2019 بمدينة سوسة التونسية، وكان الهدف من الدراسة استخراج الأبعاد الأساسية للوصم مفهوماً وظاهرة من خلال

● أستاذ باحث، قسم علم الاجتماع، جامعة العربي التبسي، تبسة - الجزائر.

د. شارف عماد: Imad.charef@univ-tebessa.dz

د. بدراوي سفيان: Soufyane.badraoui@univ-tebessa.dz

الممارسة المعرفية للذات العارفة وكمنصر مجذر في هذه الممارسة، وليس تقليماً لمجموع أعمال الباحثين في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: الوصم، الانحراف، البنية السوسيو معرفية، التحليل المبخي، الذات العارفة.

1. تقديم: بناء مسألة معرفية حول الوصم:

قد يبدو للوهلة الأولى أن موضوع الوصم والفاهيم المتصلة به من المواضيع التي يمكن اختزالها في الجانب السّلبي لعملية تجمع بين مجموعتين: إحداهما قوية، والأخرى ضعيفة، واحدة تضع المعايير والأخرى تعدّ خارج إطار هذه المعايير، كما أن من الأخطاء الشائعة في تناول هذه المسألة على مستوى الأبحاث والدراسات، اعتبارها من الظواهر السّلبية أو حتى المرضية أحياناً. وتكون إما على المستوى الجسديِّ الطبيِّ والنفسيِّ والدينيِّ، أو حتى الإيديولوجيِّ، وتمظهر من خلال مجموعة من الوضعيّات الإقصائية والتهميسيّة. ولو تأملنا جيداً هذه المسألة لوجدناها حتى في الأوساط الأكاديميةِ والعلميّة، إذ تعمل مجموعات معينة، وبدافع المصلحة، بوصم مجموعات أخرى لإضعافها أو إخراجها من الإطار العام الذي تشتعل فيه بناء على معايير معينة تعمل لصالح الأغلبية، وكثيراً ما ترتبط بالمكانة الاجتماعية لهذه المجموعات. ويقتضي نجاح هذه العملية تغيير صورة الذات وتقبل اللّصيقة بالخروج عن المجموعة، غير أنها قد تفشل إذا واجهت استراتيجيات دفاعية قوية من طرف الأفراد المراد وصمهم في وضعيات معينة.

46

يجد الوصم كمفهوم سوسيولوجي، مرجعيته في المقوله الشهيرة لـ: وليام توماس W.Thomas ومفادها أنه: «عندما يعمل الأفراد على تفسير الوضعيّات على أنها حقيقة تصبح كذلك في نتائجها، وتعرف عادة هذه القضية بالنبوءة المحققة ذاتيا» (Carrabine et Al,2009: 94)، تقر هذه المقوله بأنّ تفسير وضعيات معينة هو مجرد إدراك يرتبط بالعمليات العقلية للأفراد، ولا يعتبر حقيقة مطلقة، فما ندركه ونعتقد على أنه حقيقي يجعلنا نتفاعل معه، وتكون النتائج فيما بعد حقيقة، لأنّ ما ينتجه الأفراد داخل الشبكة التاريخية ما هو إلا خيالي، بناء اجتماعي أو حقيقة خيالية Imaginary reality كما يصفها هراري N.Harrari (Harrari,2015: 51)، هذه الحقيقة هي عبارة عن شيء يؤمن به الجميع، وقدرة الأفراد على خلق هذه الحقيقة الخيالية انطلاقاً من مجموعة كلمات، قد يجعل مجموعة من الأفراد الغرباء يساهمون فيها بشكل فعال.

(IBID: 54) إذ أنّ الواقع الاجتماعي ما هو إلّا معطى إدراكي، ولا شيء مطلق أو ثابت في حد ذاته حسب المبدأ السوسيولوجي لبرغر ولوكمان P. Berger and T.Luckman.

بالمقابل يرى كاستورياديس C. Castoriadis في كتابه the imaginary institution of society الصادر سنة 1974 ، أنه بإمكاننا وصم الآخرين ليس فقط موضوعياً أو بصفة خيالية باتّخاذنا للمعايير الاجتماعية كمرجعية ولكن [كذلك] بطريقة خيالية ذاتية [...] إذ ننسب الجنون لمجانيتنا ليس فقط لأنها صفة فيهم، وإنما ليس بمقدورنا أن نفعل غير ذلك (Castoriadis, 1974: 104) لأن العملية تخضع في ذاتها إلى عملية القوة والهيمنة كما يرى فوكو M. Foucault، إذ أننا نحِّم من لا يشبهنا، ونறّع على ذواتنا من خلال تقيضنا، بل إنّنا نعرف الأشياء عامةً من خلال أضدادها، وعلى هذا النحو نشكّل صورة عن العالم والواقع الاجتماعي من خلال إدراكتنا.

2. تساؤلات الدراسة :

بناء على ما تقدّم، سنحاول، من خلال هذا الاستقصاء، مسألة المعرفة المتعددة التخصصات حول موضوع الوصم، وكيف يتشكّل الواقع من خلال التّمثّلات الاجتماعية للذّات العارفة وفهم هذه الحقيقة التي تعتبر في الوقت ذاته خيالية، وكيف يصبح هذا الخيال حقيقة؟
لقد انتابتنا حيرة كبيرة في بايّن الأمر، إذ طرحتنا العديد من الأسئلة المعرفية قبل الاشتغال على الموضوع وأثناءه ومنها:

- ما هو الوصم؟ وما هو اللاوصم؟ ومن يحدّد هذه الصفة وحامليها؟
- ما هو الموضوع المعالج لدى الذّات الباحثة؟ هل هو «الوصم» كعملية Stigmatization اجتماعية أم «الوصم» Stigma «كمشكلة وكأزمة» ناتجة عن حالة هيمنة «القيم والأخلاقي» على الفعل الاجتماعي الموصوم، وعلى حالة «العجز والتشوّه الفيزيقي والذهني»؟
- هل البنية المعرفية للوصم من خلال المعالجة المتعددة التخصصات هي بالضرورة بنية «علمية» محايضة ومبنية على «القطيعة الایستيمولوجية» مع ما هو سائد من معرفة

«قبل علمية»؟

3. أهمية الدراسة :

تكمّن أهمية الدراسة الحالية في:

- محاولة معالجة المواضيع الاجتماعية كمشكلات سوسيولوجية ومعرفية لا كمشكلات اجتماعية.

- التناول المعرفي لموضوع الوصم خارج إطاره التنظيرية من خلال محاولة بناء معرفة اجتماعية من الواقع الاجتماعي الذي تبلور فيه.

- فهم ظاهرة الوصم ومختلف المواقب الاجتماعية المرتبطة بها كما تتجسد عند الذات العارفة وفي الخطاب الأكاديمي المهيمن (حالة مجتمع البحث المدروس).

4. أهداف الدراسة :

إن فكرة تناول موضوع الوصم من خلال المدونة المعرفية المقترنات بالبحوث المشاركة في مؤتمر الوصم هي محاولة لتقديم صورة عن التناول المعرفي للوصم في حقل متعدد التخصصات. والهدف من هذه المقاربة هو محاولة بناء معرفة من الواقع لا ترتبط بتجليات الظاهرة والمفهوم (الوصم) في الحياة الاجتماعية فحسب، بل تستند وجاهتها أيضا إلى البحث في بنية المفهوم لدى الذات العارفة، حيث سعينا، مبدئياً وفي المرحلة الاستكشافية، إلى الاستفادة من الإمكانيات المنهجية المرننة والمتطرفة للنظرية (المنهجية) المجددة Grounded Theory.

كما هدفت هذه الدراسة إلى:

- محاولة بناء موقف ابيستيمولوجي حول التناول المعرفي للوصم.
- طرح موضوع «التناول المعرفي للوصم» للمناقشة حول بنائه وطرق عرضه وتناوله أكاديميا.
- فهم وتحديد مفارقات التناول المعرفي للوصم ضمن مختلف التفاعلات التي ينتجها تبني خطاب نظري من جهة وتناول المشكلات الاجتماعية في واقعها من جهة أخرى.

48

5. التناول النظري للوصم: حوصلة لأهم المقاربـات النظرية

ظهر مصطلح الوصمة Stigma في نظرية التسمية لغوفمان E.Goffman وهو يشير إلى علاقة التدني التي يتم فيها تجريـد الفرد من القبول الاجتماعي الكامل. أي أنها العملية التي تسبـب الأخطاء والأذـام الدالة على الانحطاط الخلقي لأشخاص في المجتمع (الخواجة، 2005: 143).

وتعتبر «الذات المنعكـسة» المفهـوم الشائـع والمشترـك عند كل منظري الوصم أي الصورة التي تعكسـها المرأة للشخص، وتأسـيس النـظرية كان على هذا الأساس، إذ يرى أنصارـها بأنـ الفـرد هو كـائن متـغير باـستمرـار يستـجيب لـ ردود فعل الآخـرين. رسميـاً رد فعلـ من قبلـ نظام العـدالة الجنـائية، ووضعـ الـلـصـيقـة، يـجـبرـ الفـردـ علىـ إعادةـ تـقيـيمـ هوـيـتهـ الشـخـصـيةـ. بالإضافةـ إـلىـ ذـلـكـ، فإنـ الآخـرينـ الذينـ يـصـبـحـونـ عـلـىـ عـلـمـ بـرـدـةـ الفـعـلـ الرـسـمـيـةـ إـعادـةـ تـقيـيمـ آرـائـهـمـ حولـ الفـردـ. (Brown, 2013: 321)

(Esbensen and Geis 2013: 321)

تموقع نظرية الوصم ضمن نظريات العمليات الاجتماعية، وتشكل أحد أهم أعمال «بارديفم رد الفعل الاجتماعي» المنافس لبراديفم «الفعل» في علم الإجرام، وتكمّن قوّة هذه النّظرية في نقدّها لنسبيّة الفعل - الجريمة - ووضع المعايير التي على أساسها يكّيف الفعل ويوصم الأفراد في سياقات اجتماعية معينة.

تم تطوير نظرية الوصم في أوائل السّتينيات من القرن الماضي، ويرى المؤسّسون الذين دافعوا على نظرية الوصم، أن النّظريات التي تبحث في سببية الجريمة ركزت كثيراً على الانحراف الفردي وتجاهلت ردود فعل الأفراد تجاه هذا الانحراف، إذ يؤكّد تانينباوم F.Tannenbaum أننا نميل إلى المبالغة في التأكيد على الفعل المنحرف الأصلي أكثر من شخصية المنحرف، ولقد تحدى المفهوم القائل بأن الجريمة سيئة، إذا فمرتكبها هم أيضاً سيئون (Winters, Globocar and 121 Roberson, 2014).

49

هناك عدّة نماذج لنظرية الوصم منها نظرية تهويل الشر لتانينباوم، والانحراف الأولى والثانوي عند ليمارت E.lemert واللصيقة عند كل بيكر H.becker، وغوفمان E.goffman ولكن يمكن إرجاع تطور نظرية الوصم إلى الأعمال المبكرة لتانينباوم في كتابه الجريمة والمجتمع عام 1938 الذي قام من خلاله بالتأسيس لمفهوم فريد من نوعه وهو «تهويل الشر» الذي يشير إلى أن هذه العملية تلعب دوراً كبيراً في صناعة الإجرام أكثر من أي تجربة أخرى، فالفرد الموصوم يتّحول إلى الشيء الذي وصم به (Barkan, 2017: 168). يؤدي تصنّيف الأشخاص إلى تغيير صورتهم الذاتية بسبب رد فعل الأشخاص الآخرين للموصوم، وعملية وضع اللصيقة على الأشخاص ك مجرمين وجانحين.

دعماً لنظريته، أشار تانينباوم إلى أنه بمجرد إلقاء القبض على شاب ووصفه ك مجرم، يضطر إلى مرافقته شباب آخرين وصفوا بالمثل، ونتجاًزاً لذلك يكون لدى الشباب مجموعة جديدة من التجارب تؤدي بهم مباشرة إلى مهنة إجرامية. (Winters, OP - cit)

أما ليمارت فيقترح مفهومي الانحراف الأولى والثانوي لشرح السياقات التي يحدث فيها الوصم، إذ بالنسبة إليه يرتكب الانحراف الأولى من طرف شريحة واسعة من الأفراد، في بعض الشباب يسرقون من المحلات وبعض الآخر يقدمون على أعمال تخريب، أو استهلاك المخدرات، لكن عند القبض عليهم واقتراحهم وسماعهم بذلك يجعل منهم أفراداً مجرمين. تكون ردة الفعل

من طرف الجيران والأقارب والاصدقاء جد سلبية حيث يديرون ظهورهم لهؤلاء، حتى أن هؤلاء الأفراد يصبحون من المشتبهين في حال حدوث جرائم معينة، وهو ما يرغّبهم تدريجياً على تغيير صورة الذات والتصرف على أنهم كذلك. (Barkan, OP – cit)

البناء الاجتماعي للجريمة:

كان هوارد س. بيكر واحد من أبرز المؤسسين لنظرية الوصم التي ظهرت خلال فترة السبعينيات، لقد حدد عمله الكلاسيكي الموسوم بـ الغرباء: دراسة في علم اجتماع الانحراف 1963 الكثير من العناصر الأساسية لنظرية الوصم كما هي معروفة اليوم، وحاول من خلاله شرح كيف تعزز بعض القواعد القوانين، مقابل أخرى تكون ضعيفة نسبياً ولا تطبق إلا في سياق الثقافة الفرعية، يتمحور تفسيره حول المؤسسة الأخلاقية، التي تعكس المجهودات المبذولة من طرف مجموعات المصالح لتعزيز قواعدها بالقانون، وتعرف بـ مقاولي الأخلاق. (Schmallegger, 2014: 111)

ويقول بيكر في هذا الصدد إن «المجموعات الاجتماعية تضع المعايير، وخرقها يشكل الانحراف، ثم تطبق هذه القواعد على مجموعة من الأفراد ووصمهم بالانحراف» (Becker, 1985)، يؤكّد بيكر أولاً أن ظهور مجموعة جديدة من الغرباء يخرق القاعدة الأولى، ثانياً ظهور وكالة للرقابة الاجتماعية مهمتها تطبيق القواعد مع سلطة إلحاقيّة اللصيقة بالأفراد الخارجين للقواعد. في نهاية المطاف هذه القاعدة الجديدة، وكالة الرقابة والدور الاجتماعي «الانحراف» تأتي لتنفلل في الوعي الجماعي وتؤخذ على أنها أمر مفروغ منه و كنتيجة لذلك يجري خلق الصور النمطية السلبية لأولئك الذين وصفوا بأنهم منحرفون (Burke, 2009: 168)

50

علينا أن نطرح التساؤل التالي وهو الامتثال إلى أي من المعايير؟ معايير الثقافة الفرعية أم الثقافة المسيطرة، على هذا قام بيكر في كتابه المذكور آنفاً⁽¹⁾ outsiders بنحت مفهوم جديد يحمل ازدواجية الانحراف من طرف الثقافتين حيث أن كل واحد يرى الآخر على أنه غريب أو لا منتمي، وبالتالي منحرف عن معايير السلوك المحددة من طرف الثقافة المعنية، ومن هنا يطرح بيكر إشكالية وضع المعايير بعد دراسته التي قام بها على متعاطي الماريجوانا وعازفي موسيقى الجاز، من طرف بعض الأفراد الذين يطلق عليهم (Moral entrepreneurs) أي الذين يفرضون معاييرهم

(1) يترجم هذا المفهوم بـ الغرباء أو اللامنتمون استلهاماً من ترجمة زكي حسن لكتاب Colin willson بعنوان .1956

الأخلاقية والتي تحول فيما بعد إلى قواعد السلوك في مجتمع ما وتصبح تدريجيا قوانين تُجرِّم كل من يخرج عنها.

6. سيرورة الدراسة والإجراءات المنهجية :

اعتمدت هذه الدراسة على التحليل التجمعي Synthetic analysis المستخدم من طرف الباحثين روبرت مارتينسون، وروبار مينارد في الحقل المعرفي لعلم اجتماع الجريمة وخاصة الدراسات التقييمية منها، وفي سياق دراستنا هذه، تم الاشتغال بالطريقة الانتقامية على مجموع المواضيع والملخصات المقدّر عددها بـ 95 مساهمة والتي تشكّل المدونة المعرفية المنتقاة لموضوع «الوصم قراءة عابرة للتّخصصات»، الذي هو محور المؤتمر الدولي الذي تم انعقاده بتاريخ 9/8/2019 بمدينة سوسة التونسية .

وقد اتّخذ هذا الإجراء المنهجي من مجلّم الأعمال المقترحة أحد العناصر الأساسية للتّحليل، كما أنّ الهدف من الدراسة هو استخراج الأبعاد الأساسية للوصم كمفهوم وكظاهرة من خلال الممارسة المعرفية للذّات العارفة، وكعنصر مجدّر في هذه الممارسة وليس تقبيما لمجموع أعمال الباحثين في هذا المجال.

والمرجعية الأساسية لهذه المحاولة هي تناول موضوع الوصم وتوجيهه من خلال ديباجة الملتقى، التي كان الهدف منها محاولة وضع هذا المفهوم واستعراضه وفق مجموعة من السّيارات والأطر المعرفية، ومحاولة تقديم مقاربة متعدّدة للتّخصصات للوصم. هذه الدّيباجة التي من خلالها أو على أساسها تم تحديد أهداف الملتقى كاستعراض هذه المسألة تاريخيا وإيجاد الحلول والآليات للتّصدّي لها عبر وضعها في ما يسمّى في علم الاجتماع وبعض العلوم الأخرى بـ «المرضي» مقابل «ال الطبيعي».

تمّ وضع مجموعة من المباحث، وعددها «عشرة 10 مباحث»، تضمّ مختلف الأعمال مصنّفة وفق كلّ مبحث أو فئة أساسية، ثم تمّ العمل لاحقا على كل فئة على حدة باتّباع الإجراءات التالية:

6 - 1 التحليل النصي:

يتّم اليوم اللجوء إلى التّحليل الذّكي للبيانات أو كما يسمّى CAQDA باستعمال العديد من البرمجيات التي تبحث في تحليل النّصوص ومعانيها، وكذا الكشف عن نواتها المركزية (Mucchielli,2006: 24) ، فتحليل محتوى نصّ معين هو البحث في المعلومات، واستخراج

المعاني، وتصنيفها بكل موضوعية، بحيث أن الباحث لا يمكنه أن يؤثر على بنية هذه النصوص.

(Charmaz,2006: p37)

ومن نافلة القول التذكير أن هذا التحليل الذكي للبيانات لا يمكن اعتباره محايداً من وجهة نظر استيمولوجية، ذلك أن البرمجيات المستخدمة في التحليل عادة ما تكون موجّهة استيمولوجيا كما هي الحال بالنسبة إلى برنامج ATLAS.TI الذي يعمل وفق معطيات أو إجراءات الترميز المقترحة من طرف منهجية التّنظير المجدّر.

كذلك ينبعق عنه ما يسمى بتحليل المباحث Thematic analysis، إذ يعتبر مقاربة بنائية توافق ومنهجية التّنظير المجدّر، هذا التّنظير الذي قمنا من خلاله بتشكيل سلم تحليلي أو مصفوفة مبحثية matrix Thematic تعكس السيناريو المركزي الذي يتمحور حوله موضوع الوصم.

6 - 2 مراحل التّحليل:

إجراءات التّرميز واستخراج الفئات:

تجدر الإشارة قبل كل شيء إلى مجموعة من النقاط المهمة المرتبطة بهذه المقاربة:
أولاً: يُعتبر عن المنهجية التي استعملت في الدراسة، في الكثير من الأديبيات، بأنها طريقة لتحليل البيانات، ذلك أنها لا ترتبط ببناء نظري مسبق، هذا الموقف نجده لدى مجموع الباحثين الذين جاءوا بعد مؤسسيها الأوائل مثل: شارماز ودai وكثيراً ما يتم ربطها بمجموعة من البارادigmas، كالوضعية، البنائية وما بعد الحداثة، اعترافاً على الموقف الاستيمولوجي لجلاسر الذي يطرح، في نظرهم، إشكالاً يخصّ وضعية الباحث مقابل جمع وتحليل البيانات وتحليلها، وكذا ما يتضمنه مبدأ البحث العلمي.

ثانياً: تعتبر هذه المنهجية في الحقيقة كلاً متكاملاً، إذ لا يمكن فصل مرحلة ما عن مرحلة أخرى. وتستند هذه المقاربة على أساس مفصلة بالتحليل المكثف للبيانات، جملة جملة، وعبارة عبارة من مجلل الملخصات، حول موضوع الوصم عن طريق التّحليل المستمر والمقارن، حيث تُجمع البيانات وترمز على نطاق واسع. (Strauss,1987: 22)

اعتمدنا في التّرميز على النّموذج المقترن من طرف ستروس وهو كالتالي:

أولاً: التّرميز المفتوح (Open coding): يقتضي اكتشاف مفاهيم جديدة للظاهرة المدروسة أمبريقياً من المعطيات التي تسمح بتمييزها عن المفاهيم الواردة في دراسات سابقة، مع تجنب بناء

فّئات على درجة عالية من التجريد أو بعيدة عن المعطيات الميدانية، وذلك إما بمقارنة العناصر مع أضدادها، لاستخراج درجة التّغير، أو بالنظر إلى الظّاهرة في مستوياتها الكبرى والصغرى من أجل تحديد درجة التّعقيد. ولا مراء في أنّ المفاهيم المستخرجة وأبعادها ليست سوى مفاهيم مؤقّطة، لكنها تخيّلنا فيما بعد إلى مخارج أخرى.

اعتمدنا في هذه المرحلة على التّحليل جملة بجملة من خلال ترميزها برموز تعكس الأفعال، وتخزل هذه الجمل في عبارات وكلمات، وبما أنّ المشاركين في البحث هم من The participants الباحثين، وأنّ مادّة البحث أو البيانات هي عبارة عن بناء معرفيّ يحمل مفاهيم مشتركة بين هؤلاء، فقد اعتمدنا على التّرميز الحيّ Coding in vivo الذي يسعى إلى استخراج الرموز مباشرة من النصّ، للحفاظ على المعنى ووجهة نظر هؤلاء، كما يعتبر التّرميز الحرّ أحد الخصائص الأساسية للواقع الاجتماعي وأنظمته (Charmaz, OP - cit: 56)

ثانياً: التّرميز المحوري (Axial coding): يعتبر من أهمّ مظاهر التّحليل المفتوح، ويساعدنا على ربط الفئات بالفئات الفرعية، ويحدد الخصائص وأبعاد هذه الفئات، مع تجميع البيانات لتكون أكثر انسجاماً. والهدف من هذا التّرميز هو الفرز، التوليف وتنظيم كميات كبيرة من البيانات وإعادة تجميعها بطريقة جديدة بعد التّرميز المفتوح،

وكما تعبّر عنه التسمية، يسعى الباحث من خلال هذا التّرميز لتجميع الفئات حول فئة مركزية. ثالثاً: التّرميز الانتقائي (Selectif coding): لا يختلف التّرميز الانتقائيّ كثيراً عن سابقه إلاّ في أنه يتمّ على أعلى مستوى من التجريد، إذ من خلاله يتمّ انتقاء الفئات الأساسية أو المركزية وتحديدها بطريقة ذات معنى.

المرور إلى هذه المرحلة من التّرميز يكون بعد التأكّد من أنّ الفئات الأساسية والفئات الفرعية مرتبطة بعضها البعض بشكل منهجي ومنطقي.

وقد استعنّ بهذا التّرميز في استخراج الفئات الأساسية التي على أساسها تمّت عملية بناء مجموعة من البراديفمات ببرنامج ATLAS.TI.

7. نتائج الدراسة : عرض مخرجات تحليل مشاريع المداخلات حول «الوصم»
تقديم لنا النّظرية المجدزة آليات وجيهة في معالجة المعطيات الكيفية. فمن خلال التّرميز، سواء منه الحرّ أو المحوري أو الانتقائي، يتمّ إنشاء مجموعة من المباحث. وكلّ مبحث يعبر عن فئة رئيسية ترتبط بها مجموعة من الفئات.

وقد تم إخراج الارتباطات الكيفية حول المباحث التي انتقيناها من خلال معالجة المعطيات المتوفرة لدينا من المشاريع البحثية (الأوراق) حول موضوع «الوصم»، في شكل مخططات استخدمناها أدلةً للحصول على أبعاد تحليلية من خلال فرز العلاقات بين الفئات أو المباحث الناتجة عن الترميز ولاحقاً من أجل تقديم نتائج كما يذهب إلى ذلك كل من ستراوس وكوربين (1998).

واستخدمنا الرسم التخطيطية من أجل تنظيم وتقديم صورة مبسطة وواضحة عن الفئات البارزة التي ظهرت نتيجة عملية الترميز، وساعدتنا هذه المخططات الإجرائية على تمثيل الفئات وفق ارتباطاتها المتعددة المتعلقة بعلاقات سببية، وبآخر تفاعلية وترابطية، وتعارضية... الخ. مبدئياً، ونظراً إلى أننا نشتغل على بناء معياري وإجرائي للموضوع، وفي مرحلة استكشافية، فإننا نحاول أن نستفيد من الإمكانيات النظرية والمنهجية للنظرية المجددة للوصول إلى رؤية أكثر وضوحاً حول قضية «التناول المعرفي في موضوع الوصم»، وهذا لا يمنع بتاتاً من تدخلنا وفقاً لاستراتيجية بحثية و زمنية يتطلبها المشروع بأكمله. وهو تدخل لا يتعارض مع متطلبات معالجة المعطيات وفق البرنامج المستخدم لا وفق الإجراءات المنهجية للنظرية المجددة، ذلك أن ستراوس وكوربين يرون أنه «على الباحث والمحلل أن يطور أسلوبه وتقنياته الخاصة» (Strauss et Corbin. 1998 : 223)، خاصة فيما يتعلق بالتعامل مع المعطيات وتقنية معالجتها وتحليلها والاستنتاج منها.

54

7 - 1 الأبعاد السوسيو نفسية للوصم:

انطلاقاً من قراءة المخطط رقم 01، الذي تمحور فئته الرئيسية حول «الأبعاد السوسيونفسية للوصم»، وهي الفئة الأوسع على مستوى المدونة المعرفية التي اشتغلنا عليها، تظهر لنا مجموعة من الارتباطات بين فئات فرعية تشكل، وفقاً للنظرية المجددة، مجموعة البراديفمات كما يسميها بذلك «ستراوس» والتي تمحور حول السيناريو النظري الرئيسي الذي هو الأبعاد السوسيونفسية للوصم، وتمثل هذه البراديفمات أو الفئات الفرعية فيما يلي:

- **الفئة الفرعية:** الوصم بين المعايير الاجتماعية والسياسات الاجتماعية: يعكس هذا البراديف حقيقة الوصم المتعددة الأبعاد، فتارة تحددها المعايير الاجتماعية وتارة أخرى تتحكم فيها السياسات.

وتدرج ضمن هذا البراديف العناصر التالية: **السياق الاجتماعي والمحظوظ؛ المعيار الاجتماعي للجسد / الهوية الاجتماعية الافتراضية والحقيقة؛ الوصم والظلم الاجتماعي.**

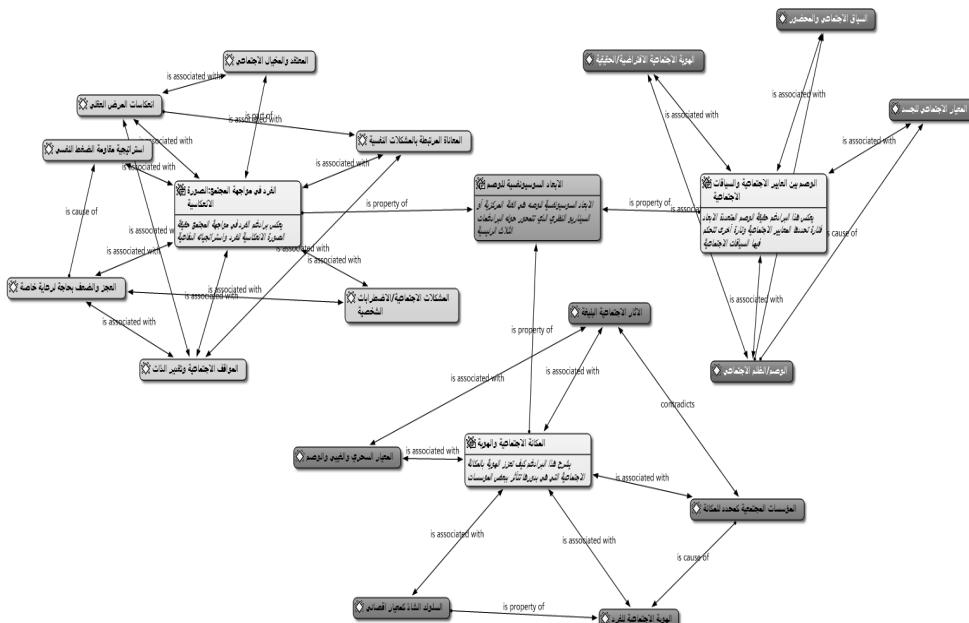
يُظهر المخطط أن كل العناصر المرتبطة بالفئة المحورية (الوصم بين المعايير الاجتماعية والسياقات الاجتماعية) تتفاعل وترتبط مع فئة «الظلم الاجتماعي»، كما أن العلاقة سببية بين هذه الأخيرة وفئة «المعيار الاجتماعي للجسد».

● **الفئة الفرعية: الفرد في مواجهة المجتمع (الصورة الانعكاسية):** حيث يعكس هذا البراديم، الصورة الانعكاسية لفرد واستراتيجياته الدفاعية.

المعتقد والمخيال الاجتماعي: انعكاسات المرض العقلي / المعاناة المرتبطة بالمشكلات النفسيّة؛ استراتيجية مقاومة الضغط النفسي؛ المشكلات الاجتماعيّة / الاضطرابات الشخصيّة؛ العجز والضعف بحاجة لرعاية خاصة؛ المواقف الاجتماعيّة وتقدير الذات.

● **الفئة الفرعية: المكانة الاجتماعيّة والهوية:** يشرح هذا البراديم كيف تعزز الهوية بالمكانة الاجتماعيّة التي بدورها تتأثّر ببعض المؤسسات.

الآثار الاجتماعيّة البليغة؛ الهوية الاجتماعيّة لفرد؛ المعيار السحرّي والغبيّ؛ المؤسسات المجتمعية كمحدد للمكانة؛ السلوك الشاذ كمعيار إقصائي.



مخطط رقم (01): الأبعاد السُّوسيو نفسيّة للوصم

7 - 2 الوصم الاجتماعي: التفاوض من أجل الاعتراف مقابل الرفض:

يظهر هذا السيناريو النظري، كما هو موضح في المخطط رقم 02، مجموعة الفئات الفرعية المرتبطة به والمتعلقة والمتراقبة مع عناصر فرعية، فنجد الفئة الفرعية:

- **الفئة الفرعية:** عتبة التحمل للمجتمع تعكس مستوى الثقافة والوعي: التي تتكون من العناصر التالية: البعد العلائقى الانفعالي / ثقافة المجتمع تطبع سلوك الأفراد / عتبة تحمل المجتمع لمكانة الفرد / التصورات الاجتماعية تحد ردة الفعل؛ الوعي الاجتماعي / المؤسسات المجتمعية تحدد المكانة

يظهر بالنسبة لهذه الفئة الفرعية أنها تشكل في أغلبها جزءاً ومحكيناً من الفئة الفرعية «عتبة المركزية» (عتبة التحمل للمجتمع تعكس ثقافة ومستوى الوعي)، كما نلاحظ أن العنصر «عتبة تحمل المجتمع لمكانة الفرد» هو الأكثر ارتباطاً مع العناصر الأخرى. تتأثر عتبة التحمل لبعض الأفعال والأفراد بمستوى الوعي وثقافة المجتمع. وتتعكس حتى في مؤسساته.

- **الفئة الفرعية:** الهوية والمرض: التحول، حيث تتكون هذه الفئة من العناصر التالية: الفئات المجتمعية الهشة في مواجهة واقعها / المرض وتقدير الذات؛ المرض وتحديد الهوية، حيث يظهر المخطط رقم 02 أنّ عنصر «المرض والهوية» هو في علاقة سببية مع عنصر «المرض وتقدير الذات»، في حين أن باقي العناصر هي في علاقة ترابطية فيما بينها وبين الفئة الفرعية المركزية والفئة الرئيسية المركزية.

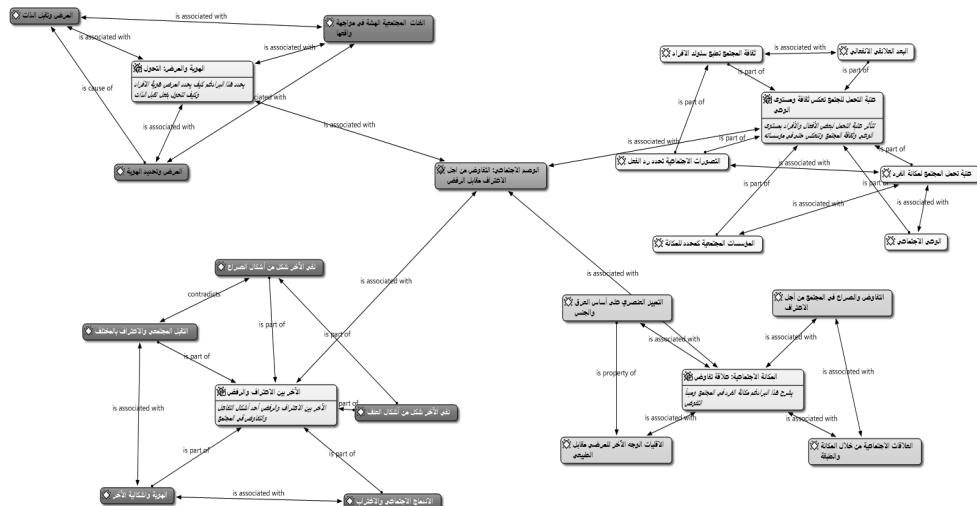
كنتيجة أولية، يحدد براديغم «الهوية والمرض والتحول» كيف أنّ المرض يحدد هوية الأفراد وكيف تتحوّل هذه الهوية بفعل تقيّيم الذات.

- **الفئة الفرعية:** المكانة الاجتماعية: علاقة تفاوض: حيث تتحدد هذه الفئة من خلال شبكة علائقية مع العناصر التالية: التفاوض والصراع في المجتمع من أجل الاعتراف / التمييز العنصري على أساس العرق والجنس؛ العلاقات الاجتماعية من خلال المكانة والطبقة؛ الأقلّيات: الوجه الآخر للمرضى والطبيعي.
- يشرح هذا البراديغم مكانة الفرد في المجتمع ومبدأ التفاوض القائم عليه .

- **الفئة الفرعية:** الآخر بين الاعتراف والرفض: حيث تتشكل ضمن هذا البحث مجموعة

من العناصر، هي: نفي الآخر شكل من أشكال الصراع؛ التقبل المجتمعي والاعتراف بالاختلاف؛ نفي الآخر شكل من أشكال العنف؛ الاندماج الاجتماعي والاغتراب؛ الهوية وإشكالية الآخر.

نخلص إلى نتيجة أولية لمجموع هذه الترابطات والتفاعلات بين مختلف عناصر هذه الفئة الفرعية، وهي أن براديفم الآخر بين الاعتراف والرفض هو أحد أشكال فهم التقاويم في المجتمع وتقديره.



مخطط رقم (02) : الوصم الاجتماعي: التفاوض من أجل الاعتراف مقابل الرفض

7 - ٣ الأبعاد العقائدية للوصم ومظاهره:

يشكل هذا المبحث الرئيسي حول فكرة «علاقة الوصم بالعناصر العقائدية وكيف تتمظهر». ويتبين ذلك في المخطط رقم 03 أدناه، الذي يتتألف من مجموعة من الفئات الفرعية بعناصرها المقابضة فيما بينها والمكونة للفئة الرئيسية (المبحث).

- الفئة الفرعية (عدم) تقبل المرض هو فشل في مواجهة الآخر، حيث يظهر من المخطط علاقة تفاعلية تجمع العناصر الثلاثة التي هي: العلاج النفسي جزء من تقبل المرض؛ الصحة النفسية ومظاهر الحياة؛ المرض العقلي والعجز الاجتماعي. يظهر المخطط أيضاً علاقات تضاد بين: «المرض العقلي والعجز الاجتماعي»، مقابل «العلاج النفسي» جزء من

تقبل المرض». وبين «المرض العقلي والعجز الاجتماعي»، مقابل «الصحة النفسية ومظاهر الحياة». ومن هنا يتضح أنّ براديغم عدم تقبل المرض هو فشل في مواجهة الآخر، وهو توضيح لعلاقة سببية بين الضغط النفسي والمعتقد.

● **الفئة الفرعية: المعتقد والآخر**، التي تتشكل من العناصر التالية: التوجّه الديني والمكانة الاجتماعية/الخطاب واللفظ يهدمان العلاقات الاجتماعية: التلاعُب السياسي بالعقائدي، نلاحظ من المخطط أدناه أنّ فئة «التوجّه الديني والمكانة الاجتماعية» هي جزء من فئة «التلاعُب السياسي بالعقائدي»، كما أنها في علاقة سببية مع فئة: «الخطاب واللفظ يهدمان العلاقات الاجتماعية».

نخلص مما تقدّم إلى نتيجة أولية مفادها أنّ المعتقد يعكس حقيقة الاختلاف مع الآخر. وهي حقيقة تكون غالباً مسيطرة سياسياً.

● **الفئة الفرعية: غريزة البقاء ومبرراتها الدينية**: هو براديغم يشرح كيف يصارع الإنسان الآخر من أجل البقاء مبرراً ذلك عقائدياً.

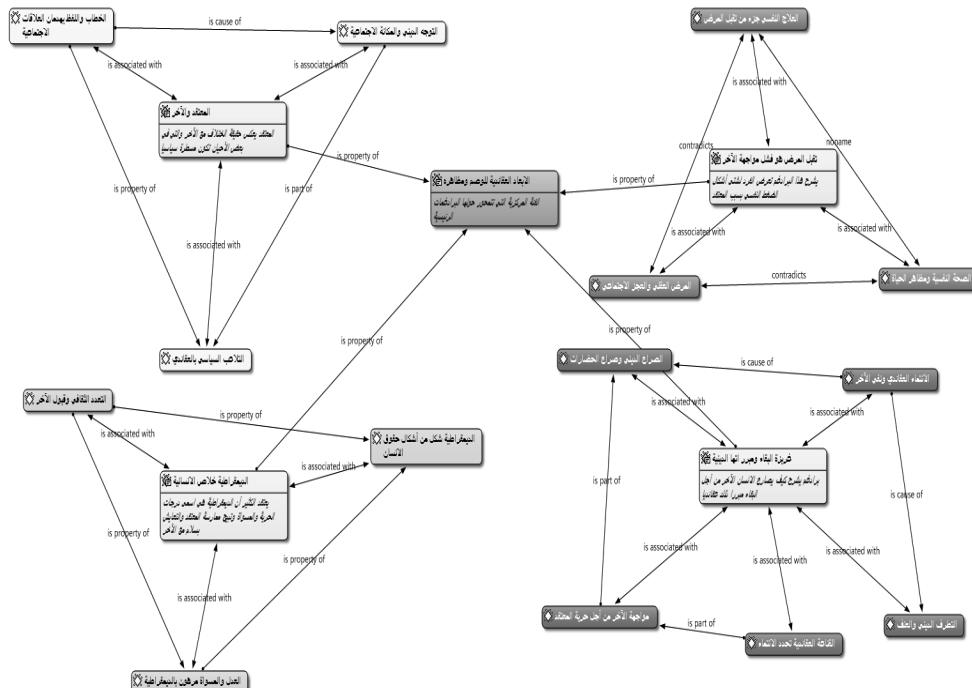
وتتشكل هذا الفئة من العناصر التالية: الانتماء العقائدي ونفي الآخر؛ الصراع الديني وصراع الحضارات؛ التطرف الديني والعنف / القناعة العقائدية تحدّد الانتفاء؛ مواجهة الآخر من أجل حرية المعتقد.

تمظهر مجموعة من العلاقات بين مختلف العناصر، ولعلّ أكثرها وضوحاً تلك العلاقة السببية بين: «الانتفاء العقائدي ونفي الآخر» مقابل فئات «الصراع الديني والحضاري» و«التطرف الديني والعنف»، كما يوضح المخطط والبرنامج المستخدم أنّ عنصر «القناعة العقائدية تحدّد الانتفاء» هو جزء من «مواجهة الآخر من أجل حرية المعتقد» الذي يمثل، بدوره، جزءاً من «الصراع الديني والحضاري».

● **الفئة الفرعية: الديمقراطية خلاص الإنسانية**: تتشكل هذه الفئة من خلال الارتباطات مع العناصر التالية: التعدد الثقافي وقبول الآخر؛ العدل والمساواة مرهون بالديمقراطية؛ الديمقراطية شكل من أشكال حقوق الإنسان، العنصر الأخير هو المصدر الذي تتشكل منه باقي العناصر كما يوضح ذلك الشكل رقم 3.

إن براديغم الديمقراطية، في التحليل المبحثي لهذه الفئة وعناصرها، هو الاعتقاد القوي

بأن الديمقراطية هي أسمى درجات الحرية والمساواة التي تتيح ممارسة المعتقد والتعايش سلام مع الآخر.



مخطط رقم (03): الأبعاد العقائدية للوسم ومظاهره

7 - 4 الحركة والانحراف: بين الفعل ورد الفعل:

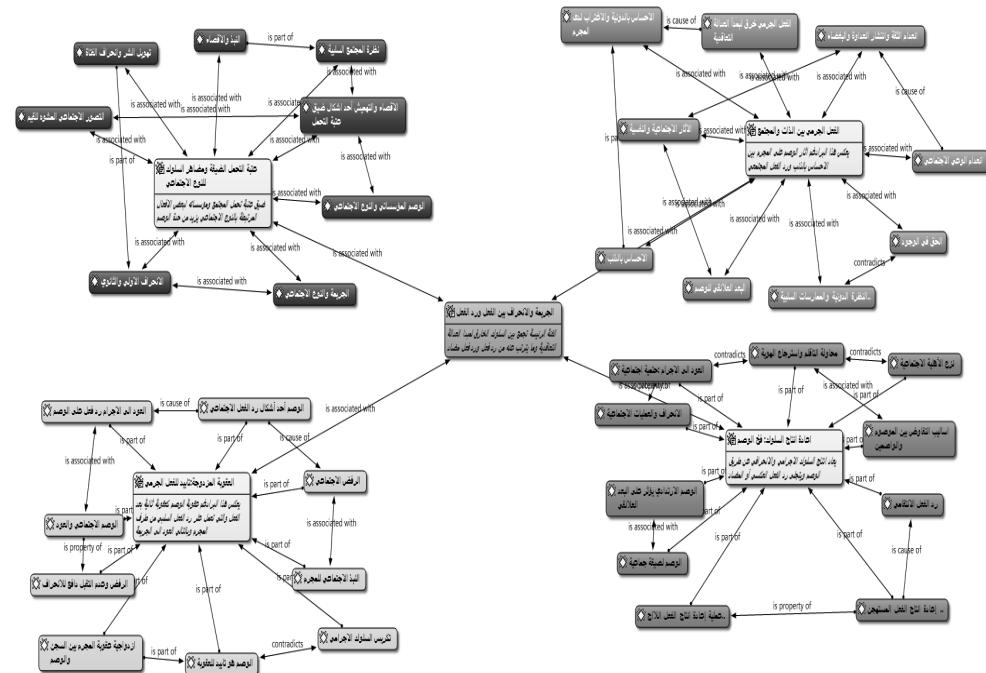
هذه الفئة الرئيسية تجمع بين السلوك الخارق لمبدأ العدالة التعاقدية وما يترتب عنه من رد فعل ورد فعل مضاد. ويتشكل هذا المبحث، كما يوضحه المخطط رقم 04، من مجموعة من الفئات الفرعية المتباينة علاجياً متنوعة. وهذه الفئات هي كالتالي:

- براديفم الفعل الجرمي بين الذات والمجتمع: من خلال العناصر المتفاعلة والمشكلة له، فإنّ هذا البراديفم يعكس آثار الوصم على المجرم بين شعوره بالذنب وردّ الفعل المجتمعي. تتشكل العناصر فيما بينها وفق شبكة علانقية مهمة، فنجد عنصر «الحق في الوجود» في علاقة تضاد مع عنصر «النظرة الدونية والممارسات السلبية»، كذلك نسجل من التحليل المبحثي لهذه الفئات وجود علاقات سببية مثلاً بين عنصر «انعدام الوعي

- الاجتماعي»، و«انعدام الثقة وانتشار العداوة والبغضاء». وبين «عنصر الفعل الجرمي خرق لمبدأ العدالة التعاقدية»، وعنصر «الإحساس بالدّونية والاغتراب عند المجرم».
- إعادة إنتاج السلوك: فـخ الوصم: الوصم للفاعل ولل فعل الجرمي يتسبب في إعادة إنتاج السلوك الجرمي كرد فعل عكسي ومضاد.
- يشكّل هذا البراديغم على خلفية الارتباطات مع العناصر المتقاعلة في الفئة الفرعية موضوع هذا التعليق. فنلاحظ مثلاً، فيما بين هذه العناصر، احتواء عنصر «عملية إعادة إنتاج الفعل الاجتماعي» لعنصر «إعادة إنتاج الفعل المستهجن»، كما نلاحظ أنّ هناك علاقة تضاد بين عنصر «محاولة التأقلم واسترجاع الهوية» مقابل كل من العنصرين: «نزع الأهلية الاجتماعية» و«العود إلى الإجرام». كما أنّ عنصر «رد الفعل الانتقامي» هو سبب «إعادة إنتاج الفعل المستهجن».
- الفئة الفرعية: عتبة التحمل الضيق وظاهر السلوك للنوع الاجتماعي: إن واقع الوصم بوصفه عملية اجتماعية ومظهراً حياطياً، تزداد حدّته بفعل ضيق عتبة التحمل للمجتمع ومؤسساته بالنسبة للأفعال المرتبطة بالنوع الاجتماعي، هذا البراديغم المرتبط بشبكة علائقية مع العناصر المتمثلة في:
- نظرة المجتمع السلبية/ النبذ والإقصاء/ تهويل الشر وانحراف البنّت/ التصور الاجتماعي المشوه للقيم/ الوصم المؤسّساتي والنوع الاجتماعي/ الانحراف/ الجريمة والنوع الاجتماعي.
- نلاحظ من المخطط رقم 04 أدناه، أنّ «التّصور الاجتماعي المشوه للقيم» مرتبط بـ«الإقصاء والتهميشه كأحد أشكال ضيق عتبة التحمل» الذي يرتبط بدوره بـ«الوصم المؤسّساتي والنوع الاجتماعي» و«بنظرة المجتمع السلبية» التي من بين مكوناتها «النبذ والإقصاء».
- إنّ «الانحراف الأولي والثانوي» مشكل من جهة من «تهويل الشر وانحراف الفتاة»، وله، من جهة أخرى، علاقة بـ«الجريمة والنوع الاجتماعي».
- الفئة الفرعية: العقوبة المزدوجة: تأييد لفعل الجرمي: يعكس هذا البراديغم عقوبة الوصم كعقوبة ثانية بعد العقوبة المسلّطة على الفعل، والتي تعمل على تعزيز رد الفعل السلبي من قبل المجرم وبالتالي العودة إلى الجريمة.
- هذا البراديغم تشكل لنا كنتيجة لشبكة العلاقات بين العناصر التالية: الوصم أحد أشكال

رد الفعل الاجتماعي: العود إلى الإجرام رد فعل على الوصم؛ الرفض الاجتماعي: الوصم الاجتماعي والعود؛ النبذ الاجتماعي للمجرم؛ تكريس السّلوك الإجرامي؛ الوصم هو تأييد للعقوبة؛ الرفض وعدم التقبّل دافع للانحراف؛ اذدواجية العقوبة للمجرم بين السّجن والوصم.

قراءة الشبكة الترابطية لبعض العناصر تحيينا على بعض العلاقات، فهناك السببية
فـ «الوصم كأحد أشكال رد الفعل المجتمعي» سبب في «العود للفعل الجرمي» و«الرفض الاجتماعي».
وارتباطات بين «الرفض الاجتماعي» و«النبذ الاجتماعي للمجرم».



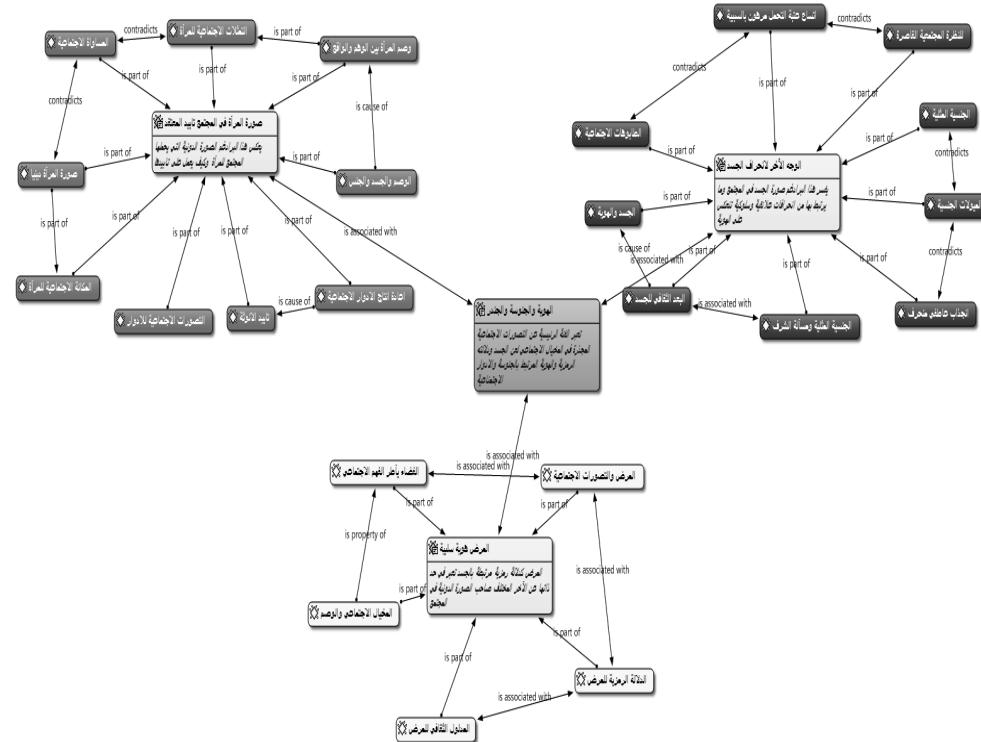
مخطط رقم (04) الجريمة والانحراف: بين الفعل ورد الفعل

7 - 5 الهوية والجنوسة والجند:

تعبر هذه الفئة الرئيسية كما هو موضح في المخطط أدناه، عن التصورات الاجتماعية المجدزة في المخيال الاجتماعي للجسد ودلاته الرمزية والهوياتية المرتبطة بالجنوسية والأدوار الاجتماعية القائمة على ذلك.

- يتشكل هذا المبحث من مجموعة من الأبعاد المتمثلة في الفئات الفرعية التالية:
- **الفئة الفرعية: المرض كهوية سلبية:** تعكس هذه الفئة براديفم المرض كدلالة رمزية مرتبطة بالجسد تعبّر في حد ذاتها عن الآخر المختلف صاحب الصورة الدونية في المجتمع. ويتشكل هذا البراديفم من خلال الارتباطات بين العناصر التالية: المرض والتصورات الاجتماعية؛ الفضاء يؤطر الفهم الاجتماعي / المخيال الاجتماعي والوصم؛ المدلول الثقافي للمرض؛ الدلالة الرمزية للمرض. تبدو هذه الأبعاد مرتبطة فيما بينها، ونستثنى من ذلك عنصر «المخيال الاجتماعي والوصم» الذي هو جزء من عنصر «الفضاء يؤطر الفهم الاجتماعي».
 - **الفئة الفرعية: الجسد كوجه آخر للانحراف:** هذا البراديفم يفسّر صورة الجسد في المجتمع وما يرتبط بها من انحرافات علائقية وسلوكية تعكس على الهوية. يتشكّل هذا البراديفم من العناصر التالية: النظرة المجتمعية القاصرة؛ اتساع عتبة التحمل مرهون بالسببية؛ التّابوهات الاجتماعية هذه العناصر، وحسب التحليل المبحثي من خلال برنامج أطلس، جاءت في علاقة تعارضية.
 - كذلك، وضمن العلاقة التّعارضية نفسها، احتوت الفئة والبراديفم أعلاه على العناصر الآتية: الجنسية المثلية / الميليات الجنسية؛ انجذاب عاطفي منحرف، في حين جاءت العلاقة مترابطة بين العناصر التالية: الجسد والهوية؛ البعد الثقافي للجسد؛ الجنسية المثلية ومسألة الشرف.
 - **الفئة الفرعية: صورة المرأة في المجتمع تأييد المعتقد:** يعكس هذا البراديفم الصورة الدونية التي يحملها المجتمع للمرأة وكيف يعمل على تأييدها. ويتشكل هذا البراديفم من العناصر التالية: تأييد الأنوثة؛ التصورات الاجتماعية للأدوار؛ المكانة الاجتماعية للمرأة؛ صورة المرأة دينياً؛ المساواة الاجتماعية؛ التمثّلات الاجتماعية للمرأة؛ وصم المرأة بين الوهم والواقع؛ الوصم والجسد والجنس؛ إعادة إنتاج الأدوار الاجتماعية.
 - ييرز المخليط مجموعة علاقات بين هذه العناصر، بحيث أنها سببية بين عنصر «الوصم والجسد والجنس» و«وصم المرأة بين الوهم والواقع». وهذا الأخير مرتبط وجزء من عنصر «التمثّلات الاجتماعية للمرأة» الذي هو، بدوره، في علاقة تعارضية مع «عنصر المساواة

الاجتماعية»، والعنصر نفسه مع عنصر «صورة المرأة دينياً» وبطبيعة العلاقة التعارضية تنسفها.



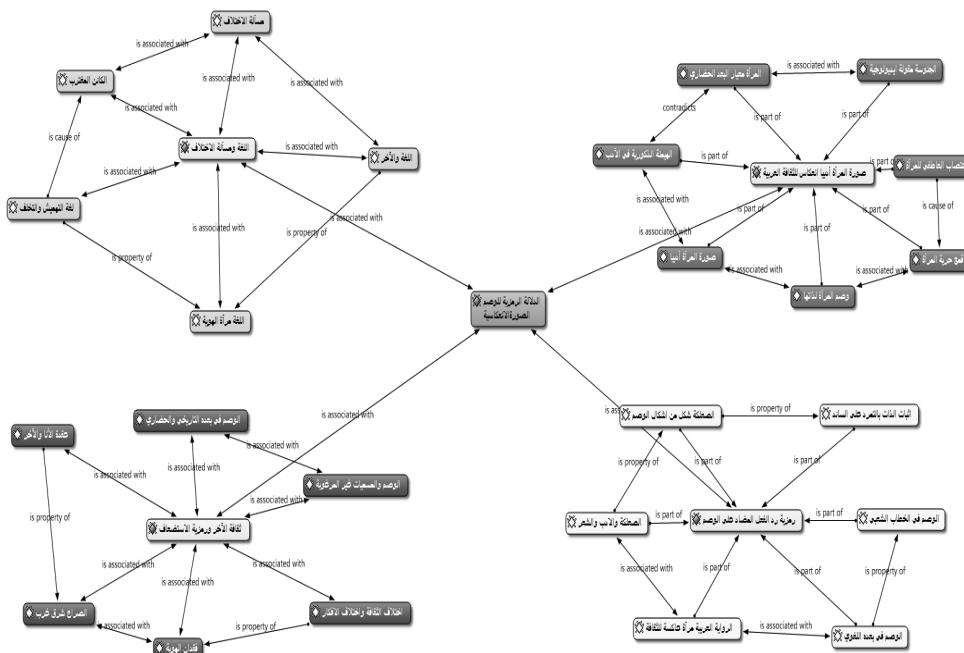
مختلط رقم (05) : الهوية والجنسة والجندر

7 - 6 الدلالة الرمزية للوسم - الصورة الانعكاسية :

يتشكل هذا المبحث من أربع فئات فرعية. وهي كالتالي:

- **الفئة الفرعية:** صورة المرأة أدبياً انعكاس الثقافة العربية: تتلخص هذه الفئة في مجموعة العناصر المتربطة ببعضها، والمعارضة وأحياناً في علاقة سلبية، فنلاحظ مثلاً أنَّ عنصر «الاغتصاب العاطفي للمرأة» هو سبب لـ«قمع حرية المرأة»، وهذا الأخير في علاقة ترابطية مع عنصر «وصم المرأة لذاتها». وهو مرتبط بدوره مع عنصر «صورة المرأة أدبياً» إلى غاية عنصر «الهيمنة الذكورية في الأدب». وهذا في تعارض مع عنصر «المرأة معيار البعد الحضاري».

- **الفئة الفرعية: اللغة ومسألة الاختلاف:** تتشكل هذه الفئة من العناصر التالية: مسألة الاختلاف/ الكائن المغترب/ لغة التّهميش والتخلّف/ اللغة والآخر/ اللغة مرأة الهوية.
 - **الفئة الفرعية: ثقافة الآخر ورمزيّة الاستضعاف:** تتشكل هذه الفئة بدورها من العناصر التالية: الوصم في بعده التاريخي والحضاري / والوصم والسميات غير المرغوبة، وهذا العنصران المرتبطان مع بعضهما. أمّا عنصر «عقدة الأنّا والآخر» فهو جزء من «الصراع شرق غرب»، وهذا الأخير مرتبط بعنصر «فقدان الهوية» الذي يتضمّن عنصر «اختلاف الثقافة واختلاف الأفكار».
 - **الفئة الفرعية: رمزيّة رد الفعل المضاد على الوصم:** في هذه الفئة تدخل العناصر التالية في علاقة ترابطية «الصلعكة والأدب والشعر»؛ الرواية العربية مرأة عاكسة للثقافة؛ الوصم في بعده اللغوي، وهذا عنصر الأخير هو جزء من عنصر: «الوصم في الخطاب الشعبي»، أمّا عنصر «الصلعكة شكل من أشكال الوصم» فهو جزء من عنصر «إثبات الذات بالتمرد على السائد».



مخطط رقم (06) لدالة الرمزية للوصم - الصورة الانعكاسية

8. مناقشة عامة وأولية لنتائج الدراسة :

8 - 1 تذكير بالفكرة والهدف والموقف الإبستيمولوجي:

ما نستعرضه في هذه القرارات، هو مناقشة أولية لمخرجات التحليل المبحثي للخطاب «الأكاديمي» حول الوصم. وهو خطاب «الذات العارفة»، كما تتضمن ملاحظاتنا الأولية والميدانية، نتائج نقاش ومقابلات حرّة مع بعض «الفاعلين» الأكاديميين.

بالعودة إلى ظاهرة «الوصم» فإنّ الهدف ليس الموضوع في حد ذاته، إنما هو محاولة جمع معطيات أولية تمكّنا من مناقشة معرفية متواصلة لتناول «الظاهرة»، ونحن نسعى لفهم البنية المعرفية ومقاربتها بين ما هو «واقع اجتماعي» وما هو «مشكلة اجتماعية» وما هو مشكلة إشكالية سوسيولوجية ومعرفية.

يجدر بنا طرح الملاحظات التالية حول «التناول المعرفي للوصم» من خلال النصوص المعالجة التي تحيل إلى ما تم تناوله ضمن مجموعة عناصر وفئات وأحياناً ثنائيات، مثل: الفعل الجريمي؛ الانحراف؛ النوع الاجتماعي والفعل الجريمي والانحراف؛ الرفض؛ التهميش؛ الإقصاء؛ المعتقد وتصنيف الأفراد وفق ذلك... الخ.

65

يظهر من خلال الملاحظات الأولية للفئات، ومحفوظ النصوص وأهدافها، أنّ الوصم محدد مسبقاً لدى الذات العارفة، أي أنه محدد مسبقاً كمشكلة اجتماعية و/أو في مشكلة اجتماعية معينة.

ولنا أن نفترض هذا الموقف الإبستيمولوجي في تناول القضية. وهو كالتالي: ماذا لو انتلقنا من افتراض معرفي يجعل من الوصم «طريقة عيش»، يجعل من «الوصم» موضوع اجتماعي وكائن نتعامل معه «معرفيًا» كذات اجتماعية Social subject له عالمه الخاص وطريقة عيشه كأيّ «ذات» توصف بـ «العادية»؟

إذن، على خلاف التناول «الحتمي» لظاهرة الوصم، يمكن اعتبارها أيضاً ك فعل تحدي لواقع معين ولنظام قائم و/أو منظومة أخلاقية ... الخ. فواقع الوصم وفق هذه القراءة هو كيف تصبح «منتجاً» اجتماعياً مهيّمنا عليه؟؛ أو كيف تصبح مهيّمنا بالفعل الناتج عنه؟ وبلاحظ، في هذا الصدد، أنّ الكثير من العناصر المتعلقة بتصور الظاهرة من قبل الذات العارفة موضوع البحث، تتطرق من خلفية «أخلاقيّة» وتحميات، وميل إلى نقل الصورة كما هي مرسومة في الواقع، وتبنيه

كمنطلق معرفي. من ذلك مثلاً وصم «عاملات الجنس» اللاتي في الواقع الاجتماعي بأنهن «داعرات؛ عاهرات... إلخ»، والحال أنه، على عكس الصفة المهنية المنفصلة، وبعيداً عن الأطر الأخلاقية، يمكن اعتبار «مهنـتهن كتجارة خدمات جنسية».

8 - 2 الذات العارفة والفح المعرفي لمعالجة الوصم:

تكتسي الكلمات قيمة بالنسبة إلى رجل الشارع والفيل، وف على حد سواء، وإذا كانت المعرفة تتعلق بمدى يقينية حقيقة الظواهر وخصائصها، فإن رجل الشارع يعيش عالماً حقيقياً بالنسبة إليه، أمّا الفيلسوف فيتساءل حول الوضعية الأساسية لهذا الواقع والمعرفة التي يكتسيها (Berger, Luckman, 1986: 8)، في هذا السياق يمكن القول إن هناك فرقاً بين الفرد والمجموعات الموصومة التي تعيش على خلفيات هذه العملية - الوصم - وكيف ترى الواقع وبين الذات العارفة والتي يعتبر بالنسبة إليها حقيقة ترتبط بظواهر لها وجود مستقل عنها، وبالتالي يبقى هذا المفهوم حبيس التصورات الاجتماعية ذات الأصل النظري العلمي والخبرات الاجتماعية الأخرى. إنّ هذا التصور السوسيومعرفي/ الإدراكي يجمع، في الوقت نفسه، حسب نظرية النواة المركزية لأبريك Abric شيئاً ي يجب الكشف عنهما. وهما المحتوى الداخلي والبنية المحددة لعناصر التمثيل الاجتماعي لموضوع معين (Lo Monaco et Lheureux, 2007: 58) (والذي يعتبر في حد ذاته معرفة اجتماعية تحاول حصر عناصر اجتماعية وتبريرها.

66

ويُلاحظ أن محاولة بناء معرفة على أساس ما هو موجود ومجدّر في الواقع الاجتماعي، ونقل تلك الخبرة وتحويلها «لغوياً» إلى نص؛ مقال؛ مداخلة... إلخ لا يجعل منها موضوعاً علمياً ومعرفياً، بقدر ما هو تناول وإعادة إنتاج معرفة شعبية وعرضها بطريقة شبه أكاديمية من خلال «تحالل» تصميم بحث؛ دراسة».

إن الواقع الاجتماعي مليء بالظواهر التي صنفها «المجتمع» أو «العامة» وصما، فدور الذات العارفة هو فهم هذا التصنيف وتحديد مجالاته وحدوده إن وجدت، ثم رفع المادة إلى مستوى التحليل والمساءلة، بمعنى معالجة ما هو في الواقع «مشكلة اجتماعية» كمشكلة «سوسيولوجية ومعرفية».

يبين ما استنتجناه من تحليل للبيانات، ومن ملاحظاتنا ومناقشاتنا الأولى أن الوصم ليس منتجاً مجتمعيّاً، بل هو فقط «منتج ذو تأثير أكاديمي» وهذا وقع التشويه.

وممّا نفّسر به هذا «التشويه»، أنّ النصوص المعالجة، أي مشاريع الدراسات والمداخلات في مجلّتها قد اتّسمت بِاقصاءٍ أو تجنبٍ للبحث الميداني الأوليّ، وهذا الأخير ينطلق من معطيات الواقع الهدف إلى فهم الحالة والفتّة والفعل والفاعل كموضوع مستقلّ عن التّصورات الاجتماعية القائمة، وتحيل هذه الملاحظة على أنّ هذا المشكّل هو أحد أهمّ أسباب «التشويه المعرفي» لموضوع «الوصم».

وبالعودة إلى مقابلة وظيفة «الباحث» بفكرة بناء «المفهوم» أو نحته، وهي بالنسبة إلينا إشكالية كبيرة في تناول هذا الموضوع ومعالجته لدى الذّات العارفة، فقد استخلصنا أنّ منطلقات وأهداف الباحث في تناوله لأيّ ظاهرة، إنّما تكشف عن مفارقة بين وظيفتين متناقضتين، حصرناها في النّمودجين التاليين:

- نموذج الباحث والذّات العارفة الذي يهدف إلى فهم وتشخيص وتحليل الفعل الاجتماعي والتفاعلات المرتبطة به، واستنتاج هذه الارتباطات والدّوافع؛ المسّبّبات / النّتائج... إلخ. وإجراء معرفة لغاية معرفية قبل كل شيء مع إمكانية «التدخل».

- نموذج الباحث «المناضل»؛ «الضحية»؛ المعاطف. وهو نموذج الباحث المعزّز للمعرفة الشّعبية والمنظّر للقيم الأخلاقية القائمة والمدافع عن قيم المجتمع إلخ.

يوضّح هذان النّمودجان وبيران نوعيّة تناولنا لأيّ ظاهرة أو موضوع، وما طبيعة تناول «المفاهيم» أو بنائها إلا مرتبطة بذلك. فالوصم هنا لا ينحدر معرفياً بدأبة بمساءلة فمعالجة الواقع كما هو متجلّز في إعادة بناء وتبرير، بل هو مستقطب شكلاً ومضموناً كما يتجلّز في الخطاب الاجتماعي والعام وما بقية النقاش إلا تحصيل حاصل.

حول هذه القضية يمكن الرجوع إلى نقاش فتحه أحد روّاد المدرسة التّفاعالية الرّمزية، هو: «هربرت بلومر» Herbert Blumer . وأيّة ذلك أنه بخصوص بناء مفهوم علمي ضمن دراسة ظاهرة اجتماعية / نفسو اجتماعية، يتمّ ذلك انطلاقاً من الصورة الواقعية والخام والمجزرة للمفهوم وهو ما يسمّيه بـ The Sensitizing Concept إلى غاية الوصول إلى نحت وبناء المفهوم في صورته النهائية الحاملة للصفة النظرية / المعرفية وهو ما يسمّيه بـ: The Final Concept .

وقد لاحظنا، على وجه الاستنتاج العام، أنّ «الوصم» يعالج معالجة مفهومية إجرائية محددة. ويظهر هذا التناول بقوّة في التقىءة المحددة وفي «التعاطف» مع «الموضوع» كما مع «الذّات»، وكذلك في الارتباطات والعلاقات السببية التي تمثلها المخطّطات بشكل واضح، وهنا تكون أمام مأزق

معريف حقيقي: هل «تحديد» صفة «الموضوع» (الوصم) مسبقاً تتجزأ لنا «فهما» ل مختلف عملياته ونمطه راته فعلاً؟

من خلال هذا وتشبيكاً مع فكرة «هربرت بلومر»، نحن نعتقد بفكرة أساسية منهجية ومعرفية، تتمثل في تجاوز السببية من خلال الاشتغال أولاً على البنى المفهمية المشتقة من الواقع إلى غاية تشكيل بنية مفهمية نظرية علمية وتقسيرية.

8 - 3 الوصم وتناوله المعرفي: نقاط مفارقات مستخلصة من ملاحظات ميدانية:
ما يتم إعادة إنتاجه معرفياً دون مساءلة وإعادة تفكير في تناول هذه الظاهرة «الاجتماعية» والموضوع «المعرفي» الذي هو الوصم، هو تكييفه ضمن ثنائيات تعكس الصورة الاجتماعية والشعبية لا النظرة الأكاديمية، فمثلاً ثنائية المرضي / العادي يعاد إنتاجها دون مقابلتها في بعض المظاهر بثنائية «الحياة الخاصة» - الفضاء الخاص؛ والحياة العامة - الفضاء العام، وهذا ما يصنع فارقاً اجتماعياً ومعرفياً في معالجة الموضوع / الظاهرة.

ويمكن النظر في مثال آخر يتعلق بوصم «الانحراف». ومفاده أننا نجد الصورة نفسها وردة الفعل الاجتماعية ذاتها هي المتبناة في الخطاب «الأكاديمي»، مما يتّصف اجتماعياً «بالمنحرف» و«المجرم»... إلخ، في حال مقابلته بالتنظيم والعقلنة للمجموعات وأعضائها الموصومة، يجعل الانتقال من الاجتماعي إلى العلم اجتماعي والنفسي، إلى العلم النفسي... إلخ، انتقالاً وجهاً ومبنياً. وهنا يُصنع المفهوم ويُتّخذ صورته المعرفية المختلفة عن «التهمة: الوصف المجتمعي»، ففي هذا الإطار من المناقشة، كان قد أشار هوارد بيكرز (Becker, OP - cit: 61 - 48) إلى فكرة مفادها أن «الباحث: الذات العارفة» الذي يواافق مسبقاً على قيم المجتمع «وصم الانحراف» مثلاً مقابل «التنظيم الاجتماعي والعقلانية» المعزّزة بالتقبيل بالنسبة للأفراد المتميّز للمجموعات «الموصومة» والذين يشكلون، بعد مسار اجتماعي، هوية خاصة، فإنّ الوصم عنده لن يشكل معطى اجتماعياً، بقدر ما يشكل معطى سياسياً (أي هناك تحديد مسبق للمعايير والقيم من خلال الهيمنة والشرعية/ الشرعية).

ونضيف هنا مثلاً ثالثاً يمكنه توضيح الموقف المعرفي بخصوص الموضوع، وهو يتعلّق بالفئات والأفراد الذين يحملون وصما اجتماعياً، وهم في الحقيقة فئة تعيش تحت «الخطر» وفي «مخاطر»، هذا الواقع يدعو إلى التّساؤل في صورة هذا الشكل من «الوصم»، وكيف نفهم

تَكُونُه على الفئات التي تعيش وضع «خطر» على حياتها ووضع الخوف، هنا نطرح سؤالين معرفيين متراقبتين، هما: ما هو الوصم؟ وما هو الأوصم؟ من يحمل صفة الوصم ومن ذا الذي لا يحملها؟.

وعطفاً على ما بدأناه في هذا العنصر، ضمن فكرة المواجهة بين صاحب المعرفة و«مقاؤل الأخلاق» (Becker, 1985 ; Scheerer, 1985) Moral entrepreneur نشير إلى أنّ طرح موضوع الوصم ضمن ثائيات «المنحرف؛ غير منحرف، السّوّي؛ غير السّوّي، العادي؛ المرضي... إلخ» هو تكريس لخطاب «مؤسّساتي» مهيمن على المعرفة ومسخّر لها لإنتاج إرادة صانع السياسات والمعايير والقيم... إلخ، فمن له شرعية وضع المعايير والتصنيف؟ وكيف تشتعل آليات المعايير (من خلال واضعها)؟ الجواب، ضمنياً وظاهرياً ومن خلال شبكة قراءة متنوعة، هو قطعاً: السّلطة؛ الهيمنة.

نستحضر في هذه المناقشة مجموعة من المواقف المعرفية والأفكار الوجيهة حول القضية، منها طرح ميشال فوكو لفكرة جوهيرية في نقده للخطاب الغربي تجاه الآخر، وهو الخطاب السلطوي ضدّ الآخر، هذا الخطاب الذي يمارسه ما يمكننا تسميته بـ«مفوّض السلطة»، وهو عادة الأكاديمي، فكلّما امتلك معرفة حصرية وحتى سابقة لوقتها (إن صحّ التعبير)، تمكن من صياغة وتوظيف خطاب مهيمن على الآخر، وله فعالية أكثر في تقويض الفهم الصحيح والعلمي، كلّ هذا يتمّ ضمن وعاء لغوي يتميّز بالفراغ ولكنه مهيمن.

69

إنّ العقل الرّاشد هو منتج المعرفة، وهو مصدر للقوة والسيطرة، وذلك من خلال انفصاله عن اللاّعقل أو الجنون، الذي يعتبر مصدر اهتمام فوكو في أعماله الكثيرة والمتنوعة، وكذلك في نظرية اللصيقة والمشفى *asile*^L عند قوفمان، كما أنه مصدر تأسيس الطب عموماً، والطبّ العقلي على الخصوص، وهكذا أصبح الإنسان موضوعاً للمعرفة في كثير من العلوم الإنسانية، كال التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثربولوجيا... إلخ، ويرى فوكو، في هذا الإطار، أن المعرفة تولد القوة بتشكيل الناس كفاعلين ثم التحكّم فيهم بالمعرفة (خاصة المعرفة العلمية) (Ritzer, 2011: 615)، من خلال خلق مجتمعين من الأفراد: العاقل والجنون، بعدما كانت هذه الفتّة واحدة في القرن السادس عشر، وذلك بالاستعانة بالعقلاء وممثليهم من أطباء وعلماء نفس على حدّ تعبيره. ففي الوقت ذاته، وفي سياق آخر، يقرّ قارفنكل وسيكورال في دراساتهما حول المصحّة العقلية باعتماد

الخبراء على ما يصفه لهم الأشخاص من أعراض ليتم مطابقتها مع مصنّفاتهم، ووضع هؤلاء الأشخاص في إطار معينة تحيل على الاضطراب والمرض العقلي (Garfinkel, 1967)، وهو ما يعتبر نوعاً من السجن المعنوي والأخلاقي.

أما بخصوص دوني زابو Denis Szabo فإنه استخدم مصطلح «خبراء العلوم الاجتماعية» الذين يعتبرهم كذلك، وبسبب اشتغالهم على فئات مسماة «مهمشة» و«أقليات»، وقد نسب هؤلاء أنفسهم خبراء ومدافعين عن هذه الفئات في حين أنهم هم من عمّق الهوة بين هذه الفئات «الموصومة» مقابل الفئات الأخرى المصنفة «عادية» و«الأغلبية»... إلخ.

من جهة أخرى تطرح الباحثة نتالي هاينيش N. Heinich فكرة حول «المعايير الاجتماعية» و«القيم»، وترى أنها ليست خاصة بفعل معين ولا مرتبطة بظاهرة دون غيرها أو مجال دون غيره، بل تتعلق «باليهمنة» (Heinich, 2017).

إذ من المفترض، ومن وجهة نظر علمية فإنّ معالجة «الوصم» يقتضي دراسة وفهم ردّات الفعل والتفاعلات الاجتماعية ضمن العملية، لا «الوصم» كما يعتقد ويتمثل في «المخيال المهيمن»، ذلك لأنّ الوصم كهوية اجتماعية، تُطرح إشكاليته ابتداءً من «تقمص» الشخص للصيقة وتغيير هويته.

70

نجد لهذه المناقشة أيضاً، ومن خلال تشبّيك نتائج هذا التحقيق الأولى (الدراسة الاستكشافية) مع هذه الأديبيات، أرضية تفسيرية على مستوى الباحثين الجزائريين، بحيث أنّ عنصر عياشي، قد ناقش قضية استقلالية الممارسة العلمية عن السياسة، ودعا جدياً إلى التمييز بين «الالتزام وهو صفة ضرورية وموضوعية للمعرفة الاجتماعية وبالتالي لمنتجيها، وبين الامتثالية لهيمنة السلطة السياسية على الفكر والمعرفة الاجتماعية واستخدامها من أجل كسب الشرعية وتبرير سيطرة القوى الاجتماعية التي بيدها الحكم». (عنصر، 2003: 69)

غير بعيد عن هذا التحليل والنقاش المعرفي، نجد جمال غريد في كتابه «L'entrée en sociologie» يطرح فكرة مهمة عنون بها إحدى فقرات الكتاب وسمّاها بـ: «تلّافياً؛ تجنب المجتمع» L'évitement de la société، وهذا التلّافياً، عنده، راجع إلى عدة عوامل تتعلق بالطابع اللاديموقراطي للسلطة، وقد أرجعه أيضاً إلى تفضيل المقاربات الماكروسociولوجية على حساب المقاربات النوعية المعمقة في دراسة المجتمع وعناصره وظواهره، لقد أشار غريد إلى أنه «لوحظ

في جزائر السبعينيات سباق محموم من أجل دراسة المسائل التي كانت السلطة السياسية قد وضعتها في جدول أعمالها كـ«الثورة الزراعية» و«التسخير الاشتراكي للمؤسسات» أو «إصلاح التعليم» (Guerid, 2013 : 219)، هذه الملاحظة تعزز بطريقة ما فكرة عدم استقلالية العلمي عن السياسي، وكيف أن هذا الأخير هو بمثابة «رب عمل» للأول وفي حالة الاصطدام يصبح «رجل العلم والسوسيولوجي شخصا تحت المراقبة»، وينظر إليه بعين الريبة.

نخلص من أطروحة غريد والبقية، إلى أن الإشكالية في فهم المجتمع وظواهره هي أيضا مسألة «دخول» و«ولكن من أي باب؟»، فلهذا نعزز موقفنا بفكرة أساسية وهي أن الدخول من باب الميدان والتحقيق الميداني ذو الصبغة الأنثروبولوجية يعطي فهما أكثر دلالة وتعبيرًا عن الواقع الاجتماعي، لكن هذا الدخول يجب أن يكون من باب الاستقلالية عن القوالب النظرية الجاهزة وعن تلك الأحكام القيمية والأخلاقية، وأخيرا عن السلطة المؤسساتية؛ سياسية، بمعنى، وكخلاصة لكل هذه العناصر: «ينبغي الإلحاح على أن استقلالية الممارسة العلمية تبدأ باستقلالية قرار رجل العلم في اختيار موضوع دراسته». (Guerid, 2013: 220)

خاتمة :

توصّلنا، بعد هذا العرض لمعطيات المرحلة الاستكشافية لدراستنا التي عنونت بـ«البنية السوسيو - معرفية للوصم»، وبعد المناقشة الأولية لنتائج التحليل الكيفي المبخي للنصوص والملاحظات المستقاة من الواقع والمقابلات والحوارات الحرة، إلى عنونة كانت ضمنية في هذا العرض، وهي التي نصوغها في الجملة التالية: «في وصم الوصم أو عندما تتتشوه البنية المعرفية للوصم»، هذا الاستنتاج هو ملخص لمؤشرات أولية عن التناول المعرفي للوصم، وكيف أن الذات العارفة في المعالجة «العلمية» للظاهرة تتطلّق من توصيف «جاهز» غالباً ما يتمظهر فيه «الوصم» كمشكلة اجتماعية لا كواقع اجتماعي مبني على التفاعلات الاجتماعية وردود الفعل الاجتماعية، حيث أن هناك فرقاً بين الفرد أو المجموعات الموصومة التي تعيش على خلفيات هذه العملية - الوصم - وكيف ترى الواقع، وبين الذات العارفة والتي يعتبر بالنسبة إليها حقيقة ترتبط بظواهر لها وجود مستقل عنها، وبالتالي، وبناء على ما تناولناه وعالجناه وناقشهناه، وإلى هذا الحد، ومن منطلق هذا التناول نرى أن هذا المفهوم سيظلّ حبيس التصورات والخبرات الاجتماعية».

قائمة المراجع:

- (1) عنصر العياشي، (2003) : نحو علم اجتماع نصي: دراسات نظرية وتطبيقية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- (2) الخواجة محمد ياسر(2005) : الانحراف والمجتمع: دراسات في علم الاجتماع الجنائي، دار المصطفى، مصر.
- (3) Barkan Steven(2017): Criminology: A sociological understanding, Seventh edition, Pearson, USA.
- (4) Becker Howard(1985) : Outsiders - études de sociologie de la déviance - traduit par J - P Briand et J - M Chapoulie, Editions Métailié, Paris.
- (5) Berger Peter, Luckman Thomas(1986) : La construction sociale de la réalité, Méridiens, PARIS.
- (6) Brown Stephen, Esbensen Finn et Geis Gilbert (2013): Criminology - Explaining crime and its context - Eighth edition, Elsivier, USA.
- (7) Burke Roger Hopkins(2009): An introduction to criminological theory, third edition, Willan Publishing, UK.
- (8) Carrabine Eamon et al (2009): Criminology - a sociological introduction - , Second Édition, Routledge, NY
- (9) Castoriadis Cornelius(1974): The imaginary constitution of society, The MIT press Cambridge, UK.
- (10) Charmaz Kathy(2006): Constructing grounded theory, Sage Publication, USA.
- (11) Garfinkel Harold (1967): Studies in ethnomethodology, Prentice - hall inc, USA.
- (12) Guerid Djamel (2013) : l'entrée en sociologie, les limites de l'universel européen. Implications concrètes dans le monde d'aujourd'hui, Publisud, Paris.
- (13) Harrari Yuval Noah (2015): SAPIENS - une bref histoire de l'humanité, ALBIN - MICHEL, PARIS.
- (14) Lo Monaco Gregory. et Lheureux Florent (2007): Représentations sociales: théorie du noyau central et méthodes d'étude. Revue électronique de Psychologie Sociale, n°1, pp.55 - 64. Disponible à l'adresse suivante: <<http://RePS.psychologie-sociale.org>>.
- (15) Mucchielli Roger (2006): L'analyse de contenu: des documents et des communications, Editons ESF, Paris.
- (16) Nathalie HEINICH (2017), Des valeurs. Une approche sociologique, Paris, Gallimard.
- (17) Ritzer George (2011): Sociological theory, 8 Edition, MacGraw - hill, USA.
- (18) Scheerer Sébastien (1985). L'entrepreneur moral atypique. Déviance et société, 9(3), 267 - 289.
- (19) Schmalleger Frank(2014): Criminology, second edition Pearson Education, USA
- (20) Strauss Anselm (1987) : Qualitative analysis for social scientists, Cambridge University Press, United Kingdom.

- (21) Strauss Anselm, Corbin Juliet (1998): Basic of qualitative research - second editions, Sage publications, LONDON.
- (22) Szabo Denis (1978): Criminologie et politique criminelle, [texte disponible dans <http://classiques.uqac.ca>]
- (23) Winters Robert, Globocar Julie et Roberson Cliff (2014): An introduction to crime and crime causation, Taylor and Francis Group, USA.

Socio - cognitive structure of stigmatization: Exploratory research of the knowing subject's social representation

DR. IMAD CHAREF •
DR. SOUFYANE BADRAOUI •

Abstract

The socio - cognitive structure of stigmatization is a discovery procedural research attempt that aims to define the content and structure of stigmatization as a social reality, which is reflected in social practice, and as a cognitive concept used to justify such processes. By investigating and analysis the knowing subject's (knower's) discourses of stigma as socio - cognitive structure, and the extraction of the dimensions of this concept, based on the thematic analysis of all projects and summaries which constitute the sample corpus accepted for the conference on: «stigmatization, an interdisciplinary reading». The conference was held on 89/ February 2019 in Sousse, Tunisia. The purpose of this study was to extract the fundamental dimensions of stigmatization as a concept and a phenomenon, through the cognitive experience of «knowing subject» as an aspect grounded in this practice, not as an evaluation of researchers and their contributions in the field.

74

Key words: stigmatization, deviance, socio - cognitive structure, thematic analysis, knowing subject.

• Research Professor, Department of Sociology, Larbi Tebessi University, Tebessa - Algeria.